قراءة نقدية في رواية " رباط المتنبي "

للأديب المغربي حسن أوريد

الباحث عبد العزيز آيت الشاري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب

الملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تعميق القراءة في المنتوج الأدبي الذي عنونه الروائي والمفكر المغربي حسن أوريد ب " **رباط المتنبي** "، وهي قراءة لا تدعي لنفسها فضل السبق في فك مغالق هذه الرواية، وإنما أتت كتذوق جمالي لها وفق ثقافتي وإدراكي للعمل الذي يفتح آفاقا لامتناهيا سيما وأنها اعتمدت على شخصية ذائعة الصيت قديما وحديثا، المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس، وحب الذات عبر الشعر والطموح إلى نيل السلطة، سلطة الفكر وسلطة الثقافة وسلطة المكان، وعليه فإن هذا العمل سيقف عند الأبعاد الدلالية لعناصر السرد في الرواية ومحاولة تأويلها وفق آليات منهجية محددة، تفضي إلى معاني ضمنية وصريحة قد يعيها المؤلف، أو أنه يقف متفرجا من عل، ليس بمنطق موت المؤلف بتعبير رولان بارث، وإنما باعتبار الكاتب حيا يتابع عمله عن كثب، وفق تصورات المتلقي العارف بأسرار الأدب المغربي.

الكلمات المفتاحية : الخطاب الروائي – المتلقي – الشخصية – المعنى.

مقدمة :

راكمت الرواية المغربية تجارب عديدة منذ الاستقلال إلى اليوم وأضحت تنافس الرواية العربية والعالمية في فهم الواقع المغربي والعربي فهما ينم عن خلخلة المجتمع وتحليله باعتبار الأدب انعكاسا لهذا المجتمع الذي تتصارع فيه طبقات وبنيات مختلفة، وقد برزت أسماء عديدة في تبني هذا الجنس الأدبي من مثل محمد شكري، ومحمد زفزاف ومبارك ربيع، ومحمد برادة، وعبد المجيد بن جلون، وعبد الله العروي، وغيرهم كثير لا يسمح المقام لسرد أسمائهم كلها، فأعمالهم شاهدة على هذا التطور الذي حصل في الرواية المغربية التي اكتسبت من خلال أدبائها طابعا جماليا وأدبيا صرفا، وقد ساهم في بروز هذه الرواية جملة من النقاد المغاربة والعرب في إعادة قراءة هذا المنتوج الأدبي قراءة جديدة تعتبر إبداعا آخر للعمل الأدبي، وهي أعمال منتشرة في مجلات وجرائد مختلفة موضوعة رهن إشارة الباحثين في الخطاب الروائي المغربي.

من هنا جاء المفكر والروائي المغربي حسن أوريد ليتم ما بدأه الروائيون المغاربة القدامى، وذلك بعد تفرغه للكتابة، واستقالته من مناصب عديدة في الدولة المغربية، إذ كان متحدثا باسم القصر الملكي، ووواليا لجهة من جهات المملكة، هذا وقد ساعده تكوينه السياسي والفكري في إنتاج أعمال مهمة تسعى إلى فهم ونقد الواقع العربي نقدا بناء وموضوعيا، وقد انتقل بين الرواية والفكر والسياسة، فأسفر تكوينه عن عناوين مهمة، من قبيل : سيرة حمار و الموريسكي وربيع قرطبة، ورباط المتنبي موضوع الدراسة، والموتشو، وكتب في الفكر أبرزها عالم بلا معالم، والاسلام والغرب والعولمة، والاسلام السياسي في إيران، وصبورة في خريف العمر، ومرآة الغرب المنكسرة، وغيرها من الكتب التي سعت دور النشر إلى إصدارها سنة بعد سنة، وبعيد إصدارها لقت ترحابا كبيرا من طرف المثقفين المغاربة والعرب، لأنها صدرت عن شخص تمرس كثيرا وقرأ كثيرا، ولذلك فهذه الروايات والكتب موجهة بالأساس إلى القارئ والمثقف العضوي الذي راكم تجربة كبيرة في قراءة الفكر والرواية والفلسفة، إذ كتبت بلغة عربية فصيحة عميقة تحمل من المعاني الضمنية والصريحة والتي تنتظر من يكشف عن عمقها ومدلولاتها.

بناء على ذلك دفعتني قراءة رواية " **رباط المتنبي** " إلى كتابة هذا المقال بغية تفكيك بنيتها ومتنها الحكائي من خلال قدرتي على تذوق العمل الأدبي، وقد اتكأت على ثقافتي وما راكمته من تجارب في تحليل النصوص الأدبية في الفصول الدراسية كوني أستاذا للأدب على اختلاف أنماطه، فضلا عن ذلك دفعني حبي للمتنبي الشخصية المحورية في الرواية وهو الشاعر العربي الوحيد الذي يتعالى بشعره على باقي شعراء العرب ويفتخر به وبذاته في نوع من النرجيسية، ورغم ذلك أحبه مفكرون ومثقفون كثر في العالم العربي والغربي، وهو القائل:

ودع كل صوت بعد صوتي فأنا الصائح المحكي والآخر الصدى

لا صوت يعلو على صوت المتنبي في حضرة الأمراء والخلفاء العباسيين في ذلك الزمان (القرن الرابع الهجري)، ولذلك كثر حساده ونقاده، أضف إلى ذلك أن قراءتي لشراحه من أمثال صديقه ورفيق دربه أبي الفتح بن جني في كتابيه (الفسر الصغير والكبير) وهما كتابان في شرح ديوان المتنبي وما استشكل من شعره، وما كتبه كل من أبي البقاء العكبري في التبيان، والبرقوقي، والواحدي، وأبي العلاء المعري في معجز أحمد، واللامع العزيزي، والزوزني في قشر الفسر، وغيرهم من الشراح الكثيرين الذين تناولوا شعره بالدرس والتحليل.

كل هذه القراءات ساهمت في خوض غمار هذه التجربة تحليل رواية رباط المتنبي كونها استعادت الشاعر المتنبي وأتت به إلى مدينة الرباط زائرا مختلفا، في إطار السفر عبر الأزمنة، وهو متخيل قل نظيره في الرواية المغربية. وليست هذه القراءة وحدها التي لامست هذه الرواية ولكن يمكن اعتبارها امتدادا للدراسات السابقة التي تناولت هذه الرواية بالتحليل.

أضف إلى ذلك أن الشخصية المحورية في النص تتشابه مع حالتي ووضعيتي الصحية فكلانا عانينا من مرض الفصام، وهو من أصعب الأمراض النفسية على الاطلاق، فهلاوسي وضلالاتي تتشابه مع هلاوس وأوهام هذه

الشخصية، زد على ذلك أن اهتمامي بالمتنبي قبل مرضي زرع في شخصية أبي الطيب، ولذلك حينما مرضت كنت أزعم أنني متنبي زمانه، وكنت أهذي هذيانا في بلدتي التي أنتمي إليها حت رميت بالجنون.

وعلى هذا الأساس فإن تجربتي مع الجنون مكنتني لفهم مخبوء هذه الرواية وجعلتني مستفزا نحو الكلام والبوح ، بناء على ذلك يمكن صياغة إشكالية هذه الورقة البحثية على النحو التالي :

لماذا اختار الروائي حسن أوريد الشاعر المتنبي شخصية محورية في متن روايته؟ ما هي دلالة هذه الشخصية؟ ولماذا اختار حسن أوريد الرباط من بين كثير من المدن المغربية؟ ولماذا تناول زمن ما بعد الربيع العربي في متن الرواية؟ ما الفرق بين القرن الرابع الهجري حيث يعيش الشاعر والقرن الواحد والعشرين حيث يعيش حسن أوريد؟ ما العلاقة التي تربط حسن أوريد بالشاعر المتنبي؟ وكيف أثر شعر المتنبي على نمط تفكير الروائي المغربي؟ .

كلها أسئلة ستحاول هذه الورقة البحثية الاجابة عنها تباعا، وقد قسمتها إلى مقدمة، وثلاثة محاور، سيتناول المحور الأول : حياة حسن أوريد ، وعتبات النص و سيتناول المحور الثاني : شخصيات الرواية بين واقعيتها ومتخيلها، وسيتناول المحور الثالث : الفضاء في الرواية ورمزيته، وستسفر هذه القراءة عن خلاصة ونتائج الورقة.

I المحور الأول : حسن أوريد وعتبات النص

أولا : من هو حسن أوريد ؟

حسن أوريد كاتب و مفكر وسياسي مغربي رأى النور سنة 1962 بقصر تزموريت قريبا من مدينة الراشيدية المغربية، انتقل للدراسة بالمدرسة المولوية إلى جانب العاهل المغربي محمد السادس الذي كان وليا للعهد آنذاك، ومن ثم التحق بكلية الحقوق والعلوم السياسية التابعة لجامعة محمد الخامس بالرباط، حصل منها على الاجازة في القانون

العام، وبعده دبلوم الدراسات المعمقة، ومن ثم ناقش دكتوراه الدولة في موضوع : " الخطاب الاحتجاجي للحركات الإسلامية والأمازيغية بالمغرب " .

عين سنة 1999م كأول ناطق رسمي باسم القصر الملكي وهو المنصب الذي يشغله إلى غاية سنة 2005، وتقلد مناصب سياسية كبيرة في الدولة إلى أن استقال منها وتفرغ للفكر والكتابة، وتفرغ للبحث كأستاذ التعليم العالي للعلوم السياسية بجامعة محمد الخامس بالرباط. حصل على جوائز متعددة أبرزها وسام إيزابيلا الكاثوليكية سنة 2005، ووسام الصليب الأكبر للاستحقاق المدني سنة 2000م."[1]. وله مجموعة من الكتب في الفكر والرواية منها : ربيع قرطبة سيرة حمار و الموريسكي ، ورباط المتنبي موضوع الدراسة، والموتشو، وكتب في الفكر أبرزها عالم بلا معالم، والاسلام والغرب والعولمة، والاسلام السياسي في إيران، وصبورة في خريف العمر، ومرآة الغرب المنكسرة، وغيرها من الكتب التي سعت دور النشر إلى إصدارها سنة بعد سنة.

ثانيا : عتبات النص

1. دلالة العنوان :

يعتبر العنوان البوابة الرئيسة لولوج عوالم النص، وهو أول ما يلتقطه القارئ من خلال الغلاف الخارجي للكتاب، وقد حضي باهتمام بالغ من قبل النقاد قديما وحديثا ووقفوا عند دلالته وأهميته كثيرا، ذلك أنه يمكن اعتبار العنوان نصا قائما بذاته يحمل معاني ضمنية وصريحة، فهو لمحة دالة بتعبير القدامى، وعليه فهو ذو مقصدية موجهة للكتاب بأسره، يختاره الكاتب بعناية لأنه سيقترن باسمه وبفكره ومرجعيته الفكرية والسياسية والثقافية، المتلقي الحاذق هو من يؤوله ويوجهه وفق مقاربة نقدية وتأويلية.

على هذا الأساس يدفعنا عنوان الرواية " **رباط المتنبي** " المكتوب بخط بارز ورمادي، ودلالة الرماد في الثقافة العربية دليل على الكرم وعلى الانبعاث على سمت العنقاء التي تبعث من الرماد لتصير جسدا فاعلا في المجتمع، وعلى هذا

فالعنوان يبوح بأن شخصية المتنبي ستبعث من قبرها ليعاد قراءة شعره من جديد سيما وأن الأوضاع التي عاشها المتنبي في القرن الرابع الهجري تتساوق والأوضاع التي تعيشها المجتمعات العربية في هذا الزمان تشتت وضياع وخراب، وسوء تدبير الحكومات للمهام الموكلة لها، وعليه فإن العنوان الماثل أمامنا يدفعنا كذلك **إلى** التساؤل وإعمال التأويل لنقف عند جزئياته ومراميه، فهو إذن تركيب إضافي نسبت مدينة الرباط فيه إلى الشاعر العربي أبي الطيب المتنبي، من هنا نتساءل ما علاقة الشاعر بالمدينة المغربية والعاصمة الإدارية للمملكة سيما وأن الشاعر العربي كان يميل إلى السلطة وتقلد المناصب السياسية وهو القائل :

وإن كان لساني يرى من الشعراء فإن قلبي من الملوك

ما أوجه التشابه بين الرباط و الشام حيث أقام الشاعر أبو الطيب المتنبي إلى جانب أمير حلب سيف الدولة الحمداني؟ لماذا اختار الكاتب والروائي حسن أوريد المتنبي دون غيره من الشعراء المعاصرين له؟ ولماذا لم يختر مدينة مغربية أخرى بخلاف الرباط،؟ ما دلالة الرباط؟.

إذا تفحصنا معاجم اللغة سنجد أن كلمة الرباط تحمل دلالات عميقة من قبيل : الوثوق والانشداد لشيء ما يقول ابن فارس : " والرباط : ما ربط به أي شد به. ويقال : ربطت الرماح ربطا محكما أي : شددتها شدا وثيقا"[2]. والرباط هنا مدينة مغربية محصنة وموثوقة أسسها الملوك والخلفاء الذي تعاقبوا على حكم المغرب آخرهم العلويون إلى زماننا هذا، ويقال إن الرباط موضع محصن أنشئ على الحدود، ويقيم فيه الزهاد والعباد وطلبة العلم والمعرفة في سبيل الله كما يذهب إلى ذلك كاتب هذه الرواية في محاضرة له .

يتبين من خلال المعنى الذي تضمنته كلمة الرباط أننا بصدد شخصية ملازمة لهذه المدينة يتعبد ويقرأ ويحلل الأوضاع السياسية والثقافية التي تحتضنها، ويقدم تصورا لهذه الأوضاع وربما يجد لها حلولا للمأزق الذي يحيط بها، رباط المتنبي أو رباط أوريد كلاهما يعتبران شخصية فريدة من نوعها استطاعت من خلال عبقريتها وفكرها وتحليلها

للواقع أن تفرض نفسها وتستشار في كل صغيرة وكبيرة، سيما وأن السارد في الرواية يبوح بهذه العبقرية التي قلما تمنح للأشخاص على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم السياسية والأديولوجية.

2- غلاف الرواية :

الغلاف الخارجي للرواية أو أي مصنف علمي أو أدبي أو غيرهما يعد عتبة أساسية لاستحسان الكتاب والرغبة في اقتنائه وقراءته، أضف إلى ذلك أن الألوان واللوحة التشكيلية التي ترافق الغلاف تجعل القارئ الذي يمتلك خبرة في قراءة الصورة من الناحية السيميائية يؤول عناصرها ويفكك مدلولاتها. على هذا الأساس ينكون غلاف رواية رباط المتنبي الأول او الواجهة الأولى من لوحة تشكيلية رسم عليها شخصان يتبين من خلال أزيائهما أنهما شخصيتان تراثيتان لعله أبا الطيب المتنبي بنظراته الحادة ووجومه الذي يتساوق وشخصيته الصارمة الحالمة بالنجوم وهو القائل:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

ومن خلال تلك الصورة التي توجد في الغلاف يتبين أن الشخصية المحورية تعيش اكتئابا حادا تغيب عنه الابتسامة والضحك، وإلى جانبه شخصية ربما هي لذي سلطة لكن سلطة فكر أبي الطيب جعلته ينحني قليلا أمام حضور المتنبي كما تبوح بذلك الصورة، وربما هي فكرة اختمرت في ذهن أوريد والتي تذهب إلى أن أبا الطيب لم يقل يوما شعرا وهو جالس وإنما يقوله وهو واقف ينظر من عل.

وفي ذات الغلاف نجد انتشار اللون الرمادي واللون الأزرق مكتوب عليهما عنوان الرواية بخط عريض، واسم المؤلف بخط أقل من اسم الرواية، ودلالة الرمادي يدل على انبعاث شخصية المتنبي من مرقده ليلازم الرباط في القرن الواحد والعشرين، واللون الأزرق يدل على السماء الصافية بعد غيوم كثيفة مثل الرماد، ولعله شفاء من اكتئاب حاد يعاني منه بطل الرواية.

في واجهة الغلاف الأخرى يوجد نص يلخص الرواية ونبذة عن المؤلف وأهم أعماله الفكرية والأدبية.

3- ملخص الرواية

تتحدث الرواية في القسم الأول منها على استقبال الراوي وهو أستاذ للعلوم السياسية بجامعة محمد الخامس بالرباط للمتنبي في ليلة ماطرة، وهو آت من القرن الرابع الهجري ليحل عند الراوي في شقته بنفس المدينة، وبعد نقاش طويل بينه وبين المتنبي سمح له أن يستقر عنده محذرا إياه أن يخرج للواقع لأن الأمور تغيرت على ما كانت عليه إبان القرن الرابع، السلطة والأمن والقانون والفكر واللغة كل شيء تغير حتى طريقة الاعتقال فقد تغيرت، إلا أن المتنبي لم يسمع لكلام مستضيفيه الأمر الذي أدى به إلى الوقوع في يد الشرطة، لكن تدخل الأستاذ وهو معروف في البلاد كلها جعله يودعه في مستشفى الأمراض العقلية بمدينة سلا، وواظب الراوي على زيارة المتنبي في مقامه حيث يتلقى العلاجات الضرورية للتخفيف من معاناة المرض النفسي والعقلي الذي ألم به.

في القسم الثاني من الرواية يثبت الكاتب أن الراوي الذي يعتقد ان المتنبي حل عنده هو المصاب بالفصام والتأثيرات التي تعرض لها جراء تناوله للأدوية هي التي جعلته يظن نفسه المتنبي أو المتنبي حل عنده، في الرواية أحداث كثيرة لبطلها الذي تعلق بطبيبة تدعى خولة ليجعل من الحب وسيلة للتعافي من المرض النفسي الذي ألم به.

المحور الثاني : شخصيات الرواية بين واقعيتها ومتخيلها

تعددت شخصيات رواية رباط المتنبي وتفاعلت فيما بينها كما شاء المؤلف حينما كتب روايته، هي شخصيات تمزج بين الواقع والخيال، بطلها أستاذ العلوم السياسية بالرباط، وهو نفسه الكاتب حسن أوريد، جعل من نفسه صديقا للمتنبي حينا، وحينا آخر شخصا مريضا ومهووسا بشخصية المتنبي وما صاحبها من انتقادات وبطولات ومآسي عاشها خلال القرن الرابع الهجري وطموحه لنيل السلطة في زمن سيف الدولة، وكافور الاخشيدي.

إن الشخصية هي الركيزة الأساسية في كل عمل روائي فهي التي تحرك الأحداث والزمان والمكان، هي كائن من ورق المتلقي الحاذق هو الذي يبعث فيها الروح بتأويله واستكناه دلالاتها ورمزيتها داخل المتن الحكائي، إذ تحمل في طياتها رسائل وقيما ومبادئ تسعى إلى نشرها في المجتمعات التي تشترك في الفكر واللغة والثقافة، وعليه فإن الكاتب حسن أوريد قد عدد شخصياته ما بين رئيسية وثانوية، كلها ساهمت في إثراء العمل الأدبي وأدخلته في مصاف الابداع الذي مزج بين اللغة والشعر والفلسفة وعادات وتقاليد المغاربة.

1- الشخصيات الرئيسة:

أ- المتنبي :

استدعى الكاتب هذه الأسطورة العربية لشهرتها ومكانتها منذ أن برز اسمه بين النقاد والمفكرين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم، وقد كتب الشيء الكثير عن شعره وشخصيته، وكلما اجتمع شخصان للحديث إلا والمتنبي ثالثهما كما يقال لقوة شعره وذكائه ونرجيسيته التي أحبها الناس، فلم يوجد من الشعراء من أحب ذاته وافتخر بها حد الجنون وهو محبوب بين الناس كما هو الشأن عند المتنبي الذي أيقظ في الإنسان العربي حب الهوية واللغة والفكر فهو القائل :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

هذا البيت وحده كفيل بأن يجعلك تثوق نحو التفوق والاجتهاد لنيل العلا، وعلى هذا الأساس اعتمد عليه حسن أوريد في روايته لأنه يرى في استحضاره المخلص من الأزمات التي تعيشها المجتمعات العربية، لمعرفته بخبايا السياسة والحكم وبالعلاقات الدولية مثلا بين المغرب وباقي الدول التي عقد معها اتفاقيات، فالمتنبي " يمثل الشموخ العربي"[3].

حاول السارد منذ بداية الرواية التعرف على هذه الشخصية ودار حوار بينهما للتعرف علي هويته والغرض الذي من أجله قصد شقة السارد يقول : " هل لك أن تحدد هويتك؟ أنا أبو الطيب المتنبي "[4] ويضيف قائلا : " أنا الشاعر وقد حللت بعصركم هذا "[5]، الحقيقة أن الأمر خيالي، ولكن إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى فالشعر لا يموت وصاحبه يبقى معه إلى الأبد، في الشعارات التي يرفعها المتظاهرون قد نجد بيتا للمتنبي مثلا:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

أو بيتا لأبي القاسم الشابي: إذا الشعب يوما أراد الحياة ....، وغيرها من الأبيات التي ترفع كشعارات ضد الظلم والاستبداد، الشعر حي لا يموت يجد فيه القارئ ضالته كلما تعرف على حقيقته ومعانيه المتجددة، ولذلك فبعث المتنبي من مرقده فيه نوع من التوجيه لقراءة شعره وفهمه لفهم ما يدور في المجتمع وعقد مقارنات بين القرن الرابع الهجري والقرن الحالي.

في وصف المتنبي داخل المتن الروائي يقول المؤلف : " **:رجل في مثل سني، يرتدي جاكته جلدية، وقبعة بيريه"، ويحمل حقيبة صغيرة، يبدو كمن حل من سفر"**[6]**، هذه الأوصاف هي نفسها أوصاف المؤلف فهو دائم**

الترحال والسفر، منذ أن التحق بمدينة الرباط كمسؤول هام في البلد، وبعده أستاذا جامعيا للعلوم السياسية، إذن فهناك تشابه بين شخصية المتنبي والسارد أو قل بينه وبين كاتب الرواية.

المتنبي في الرواية إشارة إلى كل من تذوق الشعر العربي ولغة العرب، وفكرهم وفلسفتهم، وتاريخهم، حينما تشبتوا بكتاب الله وأحاديث الرسول الكريم، وما أنتجه العلماء العباقرة ممن ينتسبون إلى الديانة الاسلامية، كل ما أنتجه هؤلاء يعبر بجلاء عن تطور وحضارة عريقة تنافس الأمم والشعوب الأخرى، استضافة المتنبي في الرباط خاصة هو نزوع نحو فهم واقع المدينة العاصمة، وباقي المدن المغربية التي تعيش نكوصا وانحلالا في القيم والأخلاق والثقافة، وكأن المؤلف يدعو ليس بقراءة المتنبي وحده، وإنما قراءة تراث الأمة العربية، وتراث غيرهم ليفهموا ما يجري في العالم بأسره.

ب- السارد

يعتبر السارد في رواية رباط المتنبي بطلا حقيقيا لا وهميا، هو أستاذ للعلوم السياسية بجامعة محمد الخامس بالرباط، وهو نفسه كاتب الرواية التي هي في الحقيقة سيرة روائية تمزج بين الواقع والخيال، هي شخصية حداثية تعرف قوانين البلاد وعاداته وتقاليده، بحكم تقلده لمناصب عليا في البلاد، تعرض لأزمات نفسية مما جعله مهووسا برموز وشخصيات تراثية أثرت في كثير من المفكرين، أبرزها شخصية المتنبي التي لازمها مذ كان تلميذا سواء بالراشيدية، أو في المدرسة المولوية، ولزمته هذه الشخصية حتى في كبره ونضجه الفكري والثقافي، وحولها إلى معادل موضوعي في الرواية، من الطبعي أن من تذوق شعر المتنبي سيخلف فيه أثرا كبيرا لما عاشه المتنبي من عقد نفسية كثيرة في حياته والعدوى قد انتقلت إلى السارد، فاعتقد نفسه متنبي زمانه، نظرا لإصابته بالفصام، والفصام في حقيقته هو من أشد الأمراض النفسية، ويسمى في الطب النفسي بسرطانه الفتاك، وكاتب هذه المقالة لا زال يعاني من أعراضه قرابة سنتين.

السارد يعيش أوهاما وضلالات مما جعله يتخذ من شعر أبي الطيب علاجا لمرض الفصام، يوازي بين العمل الأكاديمي والتفرغ للكتابة، وعبقريته ظهرت في هذه الرواية العميقة في حقيقة الأمر، يحمل هم الإنسان العربي والأمازيغي وكأنه يريد أن يخلصهم من أمراضهم وجهلهم بقضايا الفكر والأدب والسياسة التي لم تعد شأنهم يقول في هذا الصدد : " كنت أؤمن بسلطان اللغة، وأؤمن بالعرب، وأؤمن بيقظتهم ونهضتهم، أما الآن فلم أعد أؤمن بسحر اللغة ولا بسلطان البلاغة بل بقوة الفكر، والفكر لم يعد شأن العرب[7] ".

2- الشخصيات الثانوية:

تلعب الشخصيات الثانوية دورا أساسيا في بناء المعنى داخل المتن الحكائي، فهي فاعلة وكائنات ورقية تبوح بما يحمله المؤلف من هموم المجتمع الذي ينتمي إليه فهي " تشارك في الحدث الروائي، وبلورة معناه والإسهام في تصوير الحدث، فهي أقل وظيفة من وظيفة الشخصية الرئيسية، رغم أنها تقوم بأدوار مصيرية أحيانا في حياة الشخصية الرئيسية "[8]، وفي رواية رباط المتنبي عدد الكاتب من هذه الكائنات التي ساهمت في إنجاح العمل الابداعي عنده منها :

أ- **محجوبة** : قد تكون مطلقة، أو أرملة أو امرأة فشلت في إيجاد شريك حياتها، وغالبا مثل هذا الصنف هو من يعيل أسرته بالعمل في بيوت الموظفين وميسوري الحال في المجتمع المغربي، يتقنَّ فن الطبخ وتنظيم البيوت ويشاركن أهل البيت همومهم وأسرارهم وأحيانا تستشار هذه الفئة في اتخاذ القرارات العائلية، محجوبة هي خادمة السارد في الرواية، مستأنسة به في وحشته في تلك الشقة وسط العاصمة، عوضت غياب الأم والزوجة والأخت فهي كما تقول الرواية على لسان السارد : " : من يتعهد أموري، ويصلح شؤوني، ويعتني بي، تعرف حياتي، وأمنها على أسراري "[9]. فهي كما تشير الرواية لم تتلق تعليما كافيا لتفهم اتجاهات السارد الفكرية، تخدمه وتذهب لحالها عندما تنتهي من أشغالها، والدليل على ذلك عدم استيعابها لشعر المتنبي واعتبرته همزات الشيطان والجن التي تسكن منزل السارد.

ب- **ليلى** : ارتبط السارد بها بحكم نجاحها كطبيبة، وبحكم تعلقها بالأندلس وبالتراث العربي، تنحدر من أسرة عريقة، ولكن تعرضها لحادثة أودت بحياتها أثر في نفسية السارد، لم تكن متقنة للعربية ولكن حبها للتعلم جعلها تتعلق بكل ما يشغل بال السارد جاء في الرواية ما يلي : " حدثني عن الأندلس.... وما شأنك أنت والأندلس أو المتبني؟ هي جذوري، عزيزي . ومنذ متى تهتمين بالأندلس ؟ لا يمكن أن نبني شيئا عظيما دون ذاكرة " [10]. إذن فهذه الشخصية ساهمت في تسلسل الأحداث وفي مساعدة الشخصية الرئيسية في بلورة معانيها داخل المتن الحكائي.

ت- **ابن جني**: هي شخصية تراثية وهي أول شخصية لغوية فسرت وشرحت شعر المتنبي، تتلمذ على يد المتنبي حتى قال فيه " ابن جني أعرف بشعري مني " يتمتع بذكاء حاد في المسائل اللغوية والأدبية والفقهية، وقد سماه الكاتب في الرواية بهشام، وهو طالب أصيب بانهيار عصبي جراء فشله في علاقة عاطفية، لم يبرح فضاء المستشفى داخل الرواية ولزم المتنبي في محنته ودافع عنه وعن أفكاره وفلسفته وهذيانه.

ث- **كافور**: هو عبد تسلق مراتب الحكم في زمن الإخشيد، ووصل إلى سدة الحكم بمصر، معروف بذكائه في أمور السياسة ولكنه فاشل في الفكر والشعر وتذوق الأدب، هجاه المتنبي في كثير من قصائده لأنه لم يخلق فرصة للمتنبي حتى يتولى الحكم في ولاية من ولايات مصر في ذلك الزمان، جاء اسمه في الرواية (حمان) صحفي ينحدر من جنوب المغرب، أسمر اللون، تعرض لعملية نصب وهو في الثلاثين من عمره، تأزمت نفسيته وولج مستشفى الأمراض النفسية بسلا، يتسم بأسلوب السخرية والمزحة مع كل مرتادي المستشفى.

ج- **الماجور**: ممرض بمستشفى الرازي بسلا، يتولى حقن المرضى بإشارة من الدكتورة فنيش، لكنه يخالفها ويزيد في جرعة الحقن نظرا لتورطه بالاشتغال مع الأمن حيث يمدهم بمعلومات عن النزلاء المرضى في المستشفى ويقدم تقارير يومية عنهم، هو رمز للخيانة المهنية لأنه يتلاعب بسلامة وصحة المواطنين.

ح–زهرة : هي امرأة في الأربعينيات من عمرها، تعرضت لمرض نفسي وأودعت مستشفى الأمراض النفسية، لم تنل حظا من التعليم، ولذلك كانت منبهرة بشعر المتنبي الذي كانت تلقبه ب" بوعلام " أي رافع لواء الفكر والأدب في زمن التفاهة والرداءة.

خ–الدكتورة خولة : ارتبطت بالمتنبي وأعجبت بشعره، وهي شخصية تراثية عاشت في كنف السلطة مع أخيها سيف الدولة الحمداني، وهي طبيبة بمستشفى الرازي ساعدت السارد في فهم حالة المتنبي بذكائها وحسها المرهف وتعلقت به.

كل هذه الشخصيات ساهمت في إبراز المعاني الضمنية والصريحة التي أراد الكاتب حسن أوريد أن يبثها من خلال الرواية الجنس الأدبي الأكثر تأثيرا في القراء والمثقفين سيما في المجتمع المغربي.

II رمزية الفضاء في رواية رباط المتنبي:

يلعب الفضاء دورا هاما في بناء المعاني داخل العمل الروائي فهو الذي تتحرك فيه الشخصيات التي اختارها المؤلف لروايته، يقول ابن عربي : "كل مكان لا يؤنث لا يعول عليه " بمعنى أن المكان إن لم تكن له مكانة وقيمة لا يعول عليه ولا يستفيد منه الشخص شيئا، ولذلك يختار الروائي الأمكنة بعناية خاصة والتي ساهمت في تكوينه وشخصيته وعلاقاته السياسية والثقافية والاقتصادية، " فالفضاء في الرواية هو أوسع، وأشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء تلك التي تم تصويرها بشكل مباشر، أم تلك التي تدرك بالضرورة، وبطريقة ضمنية مع كل حركة حكائية "[11]. يتبين من خلال هذا الكلام أن مفهوم الفضاء الروائي أعم وأشمل من مفهوم المكان إلا أن المعنى واحد يقصد به الفضاء الذي تتحرك فيه الشخصيات الورقية بكل حرية.

وعلى هذا الأساس فإن الفضاء في رواية رباط المتنبي متعدد وله مدلولات خاصة بالنظر إلى حياة الأديب الذي اختارها، تدور أحداث الرواية في مدينة الرباط عاصمة المغرب الإدارية والسياسية منذ القديم، وهي المكان الذي درس به المؤلف حسن أوريد وارتبط به منذ أن رافق ولي العهد الملك محمد السادس في المدرسة المولوية إلى أن تولى مناصب عليا في الدولة بحكم تكوينه ونباهته، يملك شقة بالقرب من محطة القطار كما تشير إلى ذلك الرواية يقول : "كانت الليلة بالرباط من ليالي الشتاء مصحوبة بعواصف شديدة تهتز لها دقات النوافذ "[12]، ويقول أيضا : "كنا وإياه واقفين نرمق المارة من شرفة الصالون الرباط مدينة جميلة، قال المتنبي "[13]، الرباط هادئة وجميلة كما قال المتنبي على لسان الراوي فهي تشبه حلب زمن سيف الدولة، يمكن أن نتساءل لماذا اختار المؤلف الرباط دون باقي المدن المغربية؟ الخطابات الملكية تلقى من الرباط، المؤسسات الكبرى توجد في الرباط، كل الرموز المقدسة توجد بهذه المدينة الفاضلة ولذلك اختارها المؤلف لتكون مكانا يحوي أحداث الرواية، لكن يتبادر إلى الذهن سؤال آخر لماذا هي رباط المتنبي؟ وليست رباط سيف الدولة؟ ما دخل المتنبي بهذه المدينة؟ المتنبي يحل بدمشق وحلب وأنطاكية ليخلص حكامها من مشاكل حقيقية ورد الاعتبار للدين واللغة والقومية والهوية الاسلامية، فهل زار الرباط لأنه يرى فيها تشتتا وضياعا وأراد أن يعيدها إلى صوابها؟ أسئلة كثيرة تتناسل في اختيار الرباط فضاء لأحداث الرواية.

وليست الرباط وحدها التي ذكرها المؤلف في الرواية فقد أشار إلى مدن أخرى من مثل الدار البيضاء ووجدة وواشنطن، والأندلس التي تشبث بها واعتبرها جزء من تاريخ المغرب والعرب بصفة عامة، يقول في هذا السياق : " وفضلت وإخلاصا لمرضاها أن تبقى بالدار بالدارالبيضاء" [14] وأيضا " اشتريت ونحن نتجول أنا وإياه في المدينة غير بعيد من سوق مليلية بوجدة ديوان المتنبي "كما ذكر واشنطن والتي تذكره بأيام الشباب وكيف قضاه في قوله ": كنت أعيش بواشنطن رفقة فتاة مغربية كنت مقترنا بها .....وكان جو الغرب يكلؤنا وأدخلت المغرب لأني كنت متهما بالتآمر ضد الدولة [15] .

الفضاءات التي ذكرها لها علاقة به تذكره بلحظات ومواقف مهمة في حياته، فالأندلس اهتم بها كثيرا سيما في باقي رواياته كربيع قرطبة والموريسكي، وكتبه عن الفكر ولا شك أن ذكرها في رواية رباط المتنبي دليل على تشبته بها وتأثيرها فيه، بالإضافة إلى ذلك ذكر فضاءات مفتوحة ومغلقة في الرواية من مثل البيت والمستشفى والسجن والشارع وغيرها من الأماكن التي رأى في استحضارها والحديث عنها دلالة خاصة.

فضاء البيت : شقة مطلة على محطة القطار تشكل مركز استقراره وملاذه كلما ضاقت به الحياة خارجها، فهي تشكل الطمأنينة والأمن يقول في وصفها : " أسكن شقة مطلة على محطة القطار وسط مدينة الرباط"[16] ويضيف في وصفها قائلا : " لأنك لم تجد مكانا لتحل فيه غير الشقة الضيقة والتي زادتها الكتب ضيقا على ضيق"[17] ، فهي كل ما يملك السارد معتني بها وخصص فضاء للكتب التي ظلت تلازمه باعتباره يعيش في كنف الكتاب سواء قراءته أو تأليفه أو شرائه، ويبدو من خلال هذا الوصف أن السارد كائن بيتوتي يقضي معظم وقته فيها يقرأ أو يأكل أو ينام. ويعيش وحيدا في هذه الشقة قبل أن يحل المتنبي عنده يقول : " تأتي الخادمة محجوبة صباحا لتهيئ لي الفطور وترتيب البيت وتحضير الغذاء وتغادر بعدها "[18] .

فضاء المستشفى : وفيه تم إيداع المتنبي بعدما أطلق سراحه لأنه يشكو من انفصام الشخصية وحاول السارد أن يبقى مرتبطا به يزوره ويتابع حالته في مستشفى الرازي بسلا يقول : " عند الصباح في بداية اليوم ذهبت بسيارتي الى مستشفى الرازي بسلا "[19]، وقد حاول السارد إخراج المتنبي من المستشفى لكن كل محاولاته باءت بالفشل يقول : " لم تشفع صداقتي بجلال في إطلاق سراح المتبني، كان الطبيب يصر على استكمال الفحص"[20]، المستشفى له رمزية خاصة بالنظر إلى الخدمات التي يقدمها فهو ليس كأي مستشفى وإنما هو للأمراض النفسية والعقلية، وهي من أشد الأمراض فتكا بالمريض لأنه يعيش أوهاما وضلالات وجب التعامل معه بالمستشفى بنوع من الطيبوبة والرعاية اللازمة لأن المريض لم يختر أن يكون مريضا، وأي مريض إنه المتنبي أو قل السارد الذي له مكانة

خاصة في الدولة المغربية. فهو فاعل في المجتمع وأستاذ للعلوم السياسية حامل لواء اللغة والفكر والدين والهوية الأمازيغية.

خلاصة وتوصيات:

بناء على كل ما سبق يتبين أن الأديب والمفكر حسن أوريد يمتلك ملكة ونفسا روائيا كبيرا سواء من خلال هذه الرواية أو غيرها، فرباط المتنبي ستظل إنتاجا أدبيا فريدا ضمن منتوج الأدب المغربي الذي وجب العناية به ودراسته من الناحية الأسلوبية أو من نواحي واتجاهات مختلفة لأن مادته جديرة بالفحص والتنقيب، لأنها من جهة تناولت شخصية كبيرة من طينة المتنبي شاعر العربية وفيلسوف الشعراء حسب نقاد كثيرين، ولأنها كتبت بلغة عربية رصينة تنم عن تكوين صاحبها العميق في اللغة آدابها شعرا ونثرا، أضف إلى ذلك أن المهام التي وكل بها الأديب مكنته من معرفة أمور كثيرة تتعلق بالمغرب وعلاقاته الدبلوماسية مع الخارج، وبالتالي فإنتاجات الأديب حسن أوريد هي دفاع بالضرورة عن هوية المغرب عربية وأمازيغية.

الهوامش:

[1] – موقع وكيبيديا.

[2] – معجم مقاييس اللغة، ج2 ابن فارس، مادة (ربط) ، ص 478.

[3] – رباط المتنبي، حسن أوريد، ص 108.

[4] – نفسه، ص 13.

[5] – نفسه، ص 13.

[6] رباط المتنبي ، حسن أوريد، ص 12.

[7] – رباط المتنبي، حسن أوريد، ص 14.

[8] – : تقنيات بناء الشخصية في رواية ثرثرة فوق النيل، مجلة كلية الآداب، العدد ،102علي عبد الرحمن فتاح ص.70.

[9] – حسن أوريد، رباط المتنبي، ص 34.

[10] – رباط المتنبي، حسن أوريد، ص 269.

[11] – بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي) حميد الحميداني: ص 64.

[12] – حسن أوريد، رباط المتنبي، ص. 11.

[13] – نفسه، ص 23.

[14] – حسن أوريد، رباط المتنبي، ص 11.

[15] – نفسه، ص 53.

[16] – حسن أوريد، رباط المتنبي، ص 11

[17] – نفسه، ص 21.

[18] – نفسه، ص 11.

[19] – نفسه، ص 84.

[20] – نفسه، ص 87.